النسب والجمال في مديح المتنبي

أ.م.د. مريم عبدالنبي عبدالمجيد

مركز دراسات البصرة والخليج العربي

جامعة البصرة

Mariam.alnajjar%uobasrah.edu.iq@gtempaccount.com

الملخص:

تكرر ذكر النسب والجمال في ديوان المتنبي في غرض المديح، وضمّ في ثناياه معاني الشرف والمجد، وجاء في إطار يضمّ وصف الممدوح، والتعريف بسماته المميزة، المشهود لها بالسمو والتفوق في منظومة الأنساق الثقافية العربية.

فوردت المفردات الدالة على النسب الشريف كالانتساب لأصل العرب من قحطان أو عدنان، بما يحتويه من شرف الانتماء لمرجعية ثقافية عليا في النسيج المجتمعي؛ لأن هذا الانتماء يعود لأصل العربي فهو عزة وسموّ ترتفع بها الأقدار، كما ضمّن المتنبي في هذا المدى الانتماء للقبيلة، بكل ماتختزنه تلك القبيلة من مناقب ومآثر هي عند العرب رفعة لمن ينتمي لها، وكذلك كانت مفاخر الآباء ومآثرهم مدى وافر في مديح المتنبي للنسب، يضاف لذلك ذكره للسيادة التي تعد مرجعية عليا للشرف، ودالة مميزة في سمات التفوق لدى الثقافة النسقية العربية بامتياز، فضلاً عن الانتساب المكاني والقومي والشخصي الذي ورد في قصائد متعددة في مديح المتنبي وفخره بذاته.

كما أكد المتنبي بنصوص متعددة من شعره في غرض المديح على جمال الممدوح، وفي هذا الجانب من شعره ورد ذكر المفردات الدالة: الجمال، والحُسن، والبياض، والنور، والبهاء، والبدر، والقمر، والشمس، وقد وردت هذه الدلالات متجاورة مع مديحه للقيم الأخلاقية السامية التي اتفقت عليها منظومة الأنساق الثقافية عند العرب، ولاسيما الكرم والشجاعة.

الكلمات المفتاحية: (النسب والجمال، مديح المتنبي).

Lineage and beauty in praise of al-Mutanabbi

Asst.Prof.Dr.Mariam Abdulnabi Abdulmajeed

Center For Basra and Arab Gulf

University of Basrah

Abstracts:

Lineage and beauty were mentioned repeatedly in Al-Mutanabbi's Diwan for the purpose of praise, and included in its folds the meanings of honor and glory, and came within a framework that includes a description of the praiseworthy, and the definition of his distinctive features, which are recognized for their highness and superiority in the system of Arab cultural systems.

The vocabulary denoting the honorable lineage, such as affiliation with the origin of the Arabs from Qahtan or Adnan, is included with the honor of belonging to a supreme cultural reference in the societal fabric. Because this affiliation is due to the origin of the Arab, so it is a glory and highness that raises the destinies, just as Al-Mutanabbi guaranteed in this range belonging to the tribe, with all the virtues and exploits that the tribe stores, which are among the Arabs an elevation for those who belong to it. Therefore, his mention of sovereignty, which is a supreme reference for honor, and a distinctive function in the attributes of superiority in the Arab systemic culture par excellence, as well as the spatial, national and personal affiliation mentioned in multiple poems in praise of Al-Mutanabbi and his pride in himself.

Al-Mutanabbi emphasized, in multiple texts of his poetry, for the purpose of praising the beauty of the praised, and in this aspect of his poetry, the denoting vocabulary was mentioned: beauty, goodness, whiteness, light, splendor, full moon, moon, and the sun. The system of cultural systems agreed upon by the Arabs, especially generosity and courage.

Keywords: (lineage and beauty, praise of al-Mutanabbi).

مقدمة:

الحمد لله كما ينبغي لجلال وجهه وعظيم سلطانه، والصلاة والسلام على رسوله العظيم النبي محمد وعلى آله وصحبه الطاهرين، ومن والاه إلى يوم الدين.

أما بعد، فينطوي ديوان المتنبي على مفاهيم ومواقف وقيم، تحيل على هوية الذات، والآخر، بوصفها مرجعية تُعبر عن وعي الأنا بهذا المنحنى الذي يمتلك في شعره قيمة مميزة، إذ تبدّت ملامحه بصورة بارزة في الصور المستوطنة في منحنيات نصوصه، وقد كانت فضاءاته الشعرية تشفّ عن هواجسه المنبثقة من إحساسه بهوية الأنا/ والآخر، إذ تحوي في تشكّلاتها، وأُسلوبها، وموضوعاتها، ثيمات تتبنى التأكيد على نعت الذات: -الأنا، والنحنُ/ أو الآخر: الهُو، والهي، والهُم- ومآثرها، ومتمنياتها، وأحلامها، ووعيها، ومواقف الوجع، والحب، والرفض، والقبول، في مواضع رسمها النص؛ للتعبير عن عمق الشعور بها، فضلاً عن رسمه لسلبيات ملامح الذات والآخر ومثالبها.

أما في موضوع المديح فكان الشاعر يكشف عن هوية الممدوح ومايمتلكه من ميزات ومناقب تفرّد بها، وقد تعالقت هذه الدلالات التي ضمّنها الشاعر في ديوانه مع مبادئ الأنساق الثقافية العربية، المتمثلة بسلوكيات ومفاهيم عليا تجلت خَلقيا وخُلقيا بالممدوح وصفاته المصطفاة، وقد جاء القول بها مع مشاهد تُعبر عن التعريف بالأنا العربي، وما يضمه في وعيه الجمعي من قيم إنسانية سامية.

وكانت ثيمتا النسب والجمال مدى تكرر ذكره في ديوان الشاعر في موضوع المديح؛ لذلك اخترنا دراسته لأنه لم يحظَ بدراسة نقدية وافية، تكشف دلالاته، ومظاهره، ومضامينه الفكرية، والعاطفية، وما يضمّه وما يستدعيه من رؤى، بتموضعه في العمل الشعري للشاعر.

وكان أُسلوبه في هذا الإطار يتمركز حول وصف ممدوحه، وبيان سماته العليا والارتفاع بها إلى ذرى المجد، وقد وجدنا المفردات الدالة على النسب الشريف متوزعة على هذا الجانب في

مديحه، بينما وجدنا المفردات الدالة على الجمال، مثل: الجمال، والحُسن، والبياض، والقمر، والشمس، وغيرها، كاشفة عن القيمة الخَلْقية لجمال الممدوح في شعره.

وقد اخترنا النقد الموضوعي منهجاً للبحث؛ للكشف عن الأبعاد الموضوعية في مديح الشاعر في مدى النسب والجمال عبر الآتي:

المبحث الأول: النَّسَب

النَّسَب لغة: القرابة، وهو في الآباء خاصة(١)، أما الحَسَب فيعني: الكرم والشرف الثابت لدى الآباء، وقيل: هو الشرف في الفعل، أو: هو ما يعدّه الإنسان من مفاخر الآباء(٢)، وقد خلق الله البشر من ذكر وأُنثى، وجعلهم شعوباً وقبائل ليتعارفوا فيما بينهم، وجعل التقوى هي مقياس لأكرمهم، فقال سبحانه وتعالى﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ (٣)، وقد أخذ النَّسب عند العرب منزلة عالية، وذلك لما يمتلكه الشرف والسيادة والقيم السامية التي يتحلى بها الفرد ومن ثم تجليها بالحسب في الآباء والأجداد من روافد لسموّ الأنا، لذلك ظهرت في عصر ماقبل الإسلام المنافرات، التي كانت تقوم فيما بينهم بتحدي كثرة الفضائل التي امتلكها آباؤهم وأجدادهم، ولذلك كانوا يقولون للئيم الحسب جعد القفا في المثل القديم(٤)، وبعد الإسلام حثّ النبي صلى الله عليه وعلى آله على التعلم منها فقال: " تعلموا من أنسابكم ماتصلون به أرحامكم؛ فإن صلة الرحم محبة في الأهل، مثراة في المال، منسأة في الأثر" (٥)، ثم صار النسب وحفظه عندهم علماً كغيره من العلوم، وله أُصول وقواعد، اعتمدوا فيها على الرواية والسند ومعاينة الآثار والبحث والاستقصاء، فبرز من العلماء العرب الأجلاء من تخصص في هذا العلم، وتناولوه وتتبعوا موارده في قبائل العرب بجدية وموضوعية، وقد عرفوا بعلماء الأنساب(٦)، وقد ابتدأ هذا العلم أولى خطواته مثله مثل باقي العلوم عند العرب بالرواية الشفاهية، إذ كان الأبناء يحفظون نسبهم عن الآباء والأجداد، فابتدأ علماء النسب بالاتصال بكبار السن، يأخذون منهم سلسلة الأنساب كما حفظوها عن آبائهم وأجدادهم ثم يدونوها، وبتقدم الزمن وتطور التأليف عند العرب ظهر رجال كتبوا في الأنساب التي وثقت أنساب العرب، مثل فرج السدوسي ت ١٩٥هـ الذي صنف

كتاب(حذف نسب قريش)، وهشام الكلبي ت ٢٠٦هـ الذي صنف كتاب(جمهرة النسب)، والزبير بن بكار ت ٢٥٦هـ مؤلف كتاب (جمهرة نسب قريش)، يضاف لتلك المؤلفات المختصة بعلم النسب تناول المؤرخون العرب كذلك تلك القضية، ومنهم على سبيل المثال السيوطي بكتابه (قلائد الجمان)، وكذلك السويدي بكتابه (سبائك الذهب)، كما تناول الجغرافيون العرب مسألة النسب وضمنوها في كتبهم، ومنهم الهمداني في مؤلفه (صفة جزيرة العرب)، وكذلك تناول الأدباء الحديث عن الأنساب ضمن مصنفانهم، ومنهم على سبيل المثال ياقوت الحموي في مصنفه (معجم الأدباء)، وفي العصر الحديث أُلفت الكثير من الكتب في علم الأنساب، ومنها الموسوعات الضخمة مثل (معجم قبائل العرب) لمؤلفه عمر رضا كحالة[٧]، وكان الفخر بالنسب والمديح به من الموضوعات التي تناولها الشعر العربي منذ عصر ما قبل الإسلام، واستمر إلى عصرنا الحاضر، فـ" الشعر ديوان العرب، وبه حفظت الأنساب وعرفت المآثر"[٨]، وقد تناول المتنبي في مديحه وفخره بذاته ذلك المعطى من جوانب متعددة، بوصفه ميزة تنمّ عن سموّ وعلو في الذات المنتمية لذلك النسب ومايمتلكه من شرف، من ذلك مدحه الانتماء لفرعي العرب من قحطان وعدنان، وقد اتفق النسابون العرب أو كادوا على أن العرب قسمان: قسم القحطانية ومنازلهم في اليمن، وقسم العدنانية ومنازلهم في الحجاز، وذهب أغلب الرواة على أن القحطانيين كانوا عرباً في الأصل منذ الخليقة، وأن العدنانيين هم الفرع [٩]، يقول المتنبي يمدح عبيدالله بن يحيى البحتري ذاكراً انتسابه لقحطان:

أحييتَ للشعراءِ الشعرَ فامتدحــوا جميعَ من مدَحُوهُ بالذي فِيكـــا
وعلَّموا الناسَ منكَ المجدَ واقتدرُوا على دقيقَ المعاني من مَعانيكا
فكُنْ كما أنتَ يامَن لاشبيهَ لـــــهُ أو كيفَ شِئتَ فما خَلْقٌ يُدانيكا
كفى بأنَّكَ من قحطانَ في شـــرفٍ وإن فخّرتَ فكلٌّ مِن مَوالِيكـــا [١٠]

استثمر الشاعر في هذا النص النسب لقحطان، بما يحتويه من شرف وفخر بوصفه كفاية الانتماء لمرجعية ثقافية عليا في النسيج المجتمعي، فهو ركن أساس يعود لأصل العربي، يستشف من خلاله قوة ترتفع بها الأقدار، معطوفة على قيم متميزة لممدوحه، فقد وصف

ممدوحه بأنه صار مثَلا في سمات مديح الشعراء، ومَعلماً للمجد بشخصه الذي لاشبيه له، للكشف عن جوهر التفرد في صفاته، وكانت الإشارة لعلوّ انتمائه عبر القول بـ: "كفى بأنك من قحطان في شرف"، هي للدلالة على عمق الحضور، والصلة التي تربطه بذلك المعطى السامي وهو الشرف، إذ يقول العرب: رجل شريف، وماجد، أي له آباء متقدمون في الشرف، وكذلك يعنون به الحسب بالآباء(١١)، فيؤطِّر الشاعر هذه الصلة بتعالقها مع القول بالفخر، وقد استعمل فيه الفعل (فخرت) قال العكبري:" يريد في موضع شريف، وإن فخرت بهذا الشرف فكل بني قحطان مواليك"(١٢)، إذ إن هذا النسب هو كينونة لازمة له.

كما ضمّن المتنبي في مدحه للانتساب لأصل العرب من قحطان الانتماء للقبيلة، بكل ماتختزنه تلك القبيلة من مناقب ومآثر هي رفعة لمن ينتمي لها، ومنه قوله يمدح شجاع بن محمد الطائي المنبجي، وفيه يمدح انتمائه إلى قحطان وقبيلة طيء:

أُحبُّ التي في البدرِ مِنها مَشَابِهٌ وأشكُو إلى من لايُصاب لهُ شَكلُ

إلى واحِد الدُنيا إلى ابن محمـــدٍ شجاعِ الذي لله ثم لهُ الفضـــلُ

إلى الثَّمر الحلو الذي طيِّئٌ لـــهُ فروعٌ وقحطانُ بن هودٍ لهُ أصلُ

إلى سيِّدٍ لو بشَّرَ الله أُمـــــــةٌ بغير نبيٍّ بشَّرَتنا بهِ الرُسْـــــلُ

إلى ربِّ مالٍ كُلَّما شتَّ شَمْلُـــهُ تجمَّعَ في تشتيتِهِ للعُلا شمْـــلُ

همامٌ إذا مافارَقَ الغِمْدَ سيفُـهُ وعاينتَهُ لم تدرِ أيهما النصْـــــلُ (١٣)

استعان الشاعر بذكر نسب الممدوح لطيء، وهو فرع من الأصل القحطاني، لاستظهار شرف ومجد ومناقب هذا الانتماء، جاعلاً من الممدوح ثمرة حلوة لهذا النسب، يقول: أنا أشكو الهوى إلى شخص هو واحد هذه الدنيا في الشجاعة والكرم، وهو ثمر حلو أصله من قحطان بن هود أبي العرب، ومن طيء التي هي فروع له، فلو كان الله تعالى مبشرا لأمة من الناس من غير نبي لكان التبشير به، ومن الملاحظ بقصائد الشاعر في هذا المدى–ومنه نصه الآنف–

أنه يردد المفردات الدالة على: الأصل، والمعالي، والشرف، وعدم الشبيه، وغيرها من المفردات التي تشير إلى هذه المعاني ومرادفاتها، التي تضمّ تمثلا مبعثه عراقة النسب، ويستدعي بالتجاور مع هذه الدلالة أبرز صفات ممدوحه الأخرى، عبر الوصف الذي يلتزم الشاعر عبره الإحالة على أهم مكارم الأخلاق، التي تعكس فلسفته في الخُلق الأسمى ولما ينبغي أن يكون عليه الأنا، كذكره للكرم والشجاعة كما في النص أعلاه.

ومثله في قوله يمدح سيف الدولة الحمداني، مشيداً بانتمائه للعرب والأصل العدناني، وفيه يُورد صفاته المميزة المتمثلة بـ: الرفعة، والبطولة، والإحسان:

رفعَتْ بك العربُ العمادَ وصيَّرت قممَ الملوكِ مواقدَ النيـــــرانِ

أنسابُ فخرِهِمُ إليكَ وإنمـــــــا أنسابُ أصلِهِمُ إلى عدنـــانِ

يامِن يُقتّل من أرادَ بسيفِـــــه أصبحتُ من قتلاكَ بالإحسانِ

فإذا رأيتُكَ حارَ دُونكَ ناظـــري وإذا مدحتُكَ حارَ فيكَ لِساني (١٤)

يقول مخاطبا ممدوحه بإن العرب قد ارتفعت وشرفت بك، وقاتلت الملوك وأوقدت على رؤوسهم نيران الحرب، فالشرف الذي لها قد اقتبسته منك بأنسابهم العريقة من أصل عدنان، فجعل الشاعر انتماء الممدوح للعرب –وحسبك ماكان يمتاز به العرب من مكانة يعلو بها على كل الأمم الأُخرى في الذهن النسقي الجمعي –رفعة لها (١٥)، ذاكرا ماتمتاز به في أصل كينونتها من الفخر، ترسيخا لعلوّ منزلته ومجد انتمائه، كما ذكر المتنبي في مديحه لسيف الدولة– في موضع آخر – انتماءه لعدنان وقبيلة ربيعة، في قوله:

ولستَ مليكاً هازِماً لنظيرِهِ ولكنكّ التوحيدُ للشركِ هـازِمُ

تشرَّف عدنانٌ بهِ لا ربيعةٌ وتفتخرُ الدُّنيا بهِ لا العواصِمُ (١٦)

لقد جعل الشرف والفخر لعدنان وربيعة بالممدوح قيمة تعدل الشرف بالانتساب لأصلها، وماتتضمنه من القيم والمناقب على مرّ الحقب؛ لذلك جاء هذا الوصف مدى لعلاقة متبادلة بين الممدوح وبين ما ينتسب إليه، فلكل قيمة مآثرها التي تتحرك ضمن العلاقة المتبادلة، حيث صوَّر الشاعر خاصية هذا المدى الذي يُمثل القيمة العالية في محور الأعراف المجتمعية، التي تضمّ موارد متواترة للتميز والشرف.

وقد كان ولع العرب بالمفاخرة بالآباء والأجداد "يدعوهم إلى الذهاب إلى القبور؛ حيث كانوا يشيرون إلى القبر بعد القبر ويقولون: هل فيكم مثل فلان ومثل فلان"[١٧]، وكذلك كانت مفاخر الآباء مع الانتساب للقبيلة وشرفها مدى وافر في مديح المتنبي، ومنه قوله يمدح محمد بن عبيد الله العلوي المشطب:

خيرُ قريشٍ أباً وأمجدُها أكثرُها نائِلاً وأجودُهـــــا

أطعنُها بالقناةِ أضربُهـا بالسيفِ جحجاحُها مُسوَّدُها

أفرسُها فارِساً وأطولُهـا باعَاً ومغوارُها وسيّدُهـــــا [١٨]

يقول المتنبي بأن لممدوحه أبا هو خير قبيلة قريش؛ لانتسابه إلى النبي لذلك فليس في هذه القبيلة من هو أشرف منه أباً، وكذلك هو أشجعها، وقد كنى عن ذلك بـ: أطعنها، وأضربها، وهو مسوّدها، وسيدها، وفارسها، ومغوارها، قال العكبري:" وذكره مع الطعن والضرب القناة والسيف للتأكيد"[١٩]، فاستلهام التميز بـ: الأب بكونه خير قريش، أتبعه الشاعر بانفتاح الدلالة على الأفضل عبر معطيات الثقافة النسقية فيما يخص الانتساب، ودمجه مع القوة والفروسية والسيادة حيث كثف المعنى لتمييز ممدوحه. وكذلك كانت مناقب الأبوة ثيمة بارزة في مديحه لأبي القاسم طاهر بن الحسين بن طاهر العلوي، في قوله:

وأبهرُ آياتِ التِّهامي أنَّـــــــهُ أبوكَ وأجدى مالكُم من مناقبِ

إذا لَم تكُن نفسُ النَّسيبِ كأصلِهِ فَماذا الذي تُغني كِرامُ المَناصِبِ

وما قرُبت أشباهُ قومٍ أباعـــــدٍ ولا بعُدت أشباهُ قومٍ أقـــــاربِ (٢٠)

يسعى الشاعر في النص إلى التعبير عن رفعة انتماء الممدوح في النسب، واستثمار هذا الانتماء لأجل إعلاء سماته المميزة فيذكر: الآيات، والمناقب، والأصل، وكرام المناصب، الدالة على كينونة لها من الشرف الذي يُفتخر به، فهو في مكانة عالية يستحضرها مع القول بانتمائه لأب هو أجدى مايُمتلك من المناقب، كما جاء ذكر الآباء الكرام في مديح المتنبي لأبي بكر علي بن صالح الروذباري الكاتب، في قوله:

وبآبائكَ الكرام التأسّـــــي والتسلّي عمّن مضى والتعازي

تركوا الأرضَ بعدما ذلّلوها ومشتْ تحتَهُم بلا مِهمـــــازِ

وأطاعتهُمُ الجيوشُ وهيبوا فكلامُ الورى لهم كالنُحـــــازِ (٢١)

استثمر الشاعر القول بشرف انتساب الممدوح لآباء كرام فراح يصف ماتركوه من مآثر سامية، من تذليل الأرض، وقيادة الجيوش، يقول إذا ذكر آباؤك تعزينا وسلونا عمن فقدنا من بعدهم، لقد ملكوا الأرض ثم ذللوها، فأطاعتهم كما تطيع الدابة الذلول فلا يحتاج راكبها مهمازاً لطاعتها له كما يشاء، كذلك أطاعتهم الجيوش وملكوا مهابة الورى، فهذه القيم هي وتر حساس يسهم في استثارة معاني العزّ والتفوق والسمو، لتمنح النص في المديح قوة في التعبير عن شرف انتماء الممدوح، وعراقة كينونته في الواقع المجتمعي الذي ينتمي إليه، وورد ذكر الأب وسيادته في العرب أيضا في مديح المتنبي لبدر بن عمار بقوله:

ياذا المعالي ومعدنَ الأدبِ سيّدنا وابن سيّد العربِ

أنتَ عليمٌ بكلِّ معجـــزةٍ ولو سألنا سواكَ لم يجبِ (٢٢)

الإحالة على السيادة مرجعية عليا للشرف في الذات عند العرب، فالسؤدد لغة: الشرف، والسيد: الشريف، والمالك، والربّ، والفاضل، والمُقدم(٢٣)، في النص أعلاه استهل الشاعر هذه

السمة بالمعالي للتعبير عن قيمة السمو بهذا الانتساب، مستثمرا ما تضمّه من دلالات من أهمها القول بـ : (معدن الأدب)، و(سيدنا)، و(ابن سيد العرب)، و(عليم)، و(معجزة)، التي تضمنت مفاهيماً تشير على التميز والتفوق لدى الثقافة النسقية العربية، وكانت السيادة من المفاهيم التي ضمنها المتنبي بتكرار في مدحه، ومنه قوله يمدح علي بن محمد بن سيار بن مكرم التميمي:

ألستَ بن الأُلى سعدوا وسادوا ولم يلدوا امرءاً إلاّ نجيبـــا

ونالُوا ما اشتهوا بالحزمِ هوناً وصاد الوحش نملُهم دبيبـــا

وما ريح الرياض لها ولكـــن كساها دفنهم في التربِ طيبا (٢٤)

في هذا النص من المديح برز استلهام الشاعر للاستفهام، والنفي، والاستثناء، لتدعيم دالته على تميز انتساب ممدوحه لمن سعدوا وسادوا ولم يلدوا إلاّ نجيباً ماجداً، فصرَّح عن المضمون القيمي الذي تجلى بهم رفعة ومنزلة، ليكون هذا الانتساب مهيمنة عليا تكشف عن الشرف والسمو والمكانة العالية، بوصفها واقعة متجلية في أصل هويته المنحدرة منهم.

وكان الانتساب إلى النبي صلى الله عليه وعلى آله سمة عليا ضمنها المتنبي في مديحه لمحمد بن عبيد الله العلوي المشطب، مع ذكر مايتبعها من انتمائه إلى بني غالب ومعدّ، بالقول بأنه تاج لؤي بن غالب يعني يتشرفون به ويتزينون، ويرتفع فرعهم وأصلهم به كناية عن الأبناء والآباء:

تاجُ لؤيّ بن غالبٍ وبـــــهِ سما لها فَرعُها ومحتِدُها

شمسُ ضحاها هلالُ ليلَتِها درُّ تقاصيرِها زبرَجَدُهـــا

قد أجمعتْ هذهِ الخليقَةُ لي أنَّكَ يا ابنَ النبيّ أوحدُها

وأنكَ بالأمسِ كنتَ مُحتلما شيخَ معَدٍّ وأنتَ أمردُهـــا (٢٥)

مديح الشاعر للنسب لآل النبي عليه الصلاة وأتم التسليم: هو مديح الانتماء الأكبر، الذي يفيض من النبي وشرفه الأعلى كونياً، وما يمتلكه هذا المدى من رفعة وسموّ، فهو الأسمى بهذا الانتماء الشريف المشار له بلفظ الإبن مجازاً، ومايكنه من الأبوة العليا وهي المرجع الأقوى والأشرف في الانتساب.

الانتساب للمكان أيضا كان من موارد الفخر والمديح في الشعر العربي، وفي شعر المتنبي كذلك، ومنه قوله يمدح الانتساب لليمن على لسان بعض التنوخيين وقد سأله ذلك:

قضاعَة تعلمُ أنّي الفتى الـــ ـــذي ادخرتْ لصُروف الزَّمانِ

ومَجدي يدلُّ بَني خنـــــدف على أنَّ كلّ كريمٍ يَمـــــانِ

أنا ابن اللقاء أنا ابن السخاء أنا ابن الضراب أنا ابن الطعانِ (٢٦)

يقول بأن قبيلة قضاعة تعلم أني فتاها الذي تحتاجه وتدخره لدفع ما يحلّ بها من الأهوال والمصاعب، حيث تعلم بما أمتلكه من شجاعة وحسن رأي، فمجدي وشرفي دليل على أن كل كريم هو يمني؛ لأني انتسب لهم وهم يرجعون لي، لقد برز الانتماء للمكان (اليمن) مع دمجه بالمجد والكرم والشجاعة في نص المتنبي، للتعبير عن شرف ومكانة عالية، بوصفه قيمة متجلية مع مفاهيم سامية في الأعراف المجتمعية الدالة على التفوق، ومايتداعى منه من آثار في الحياة، والأحياء، باستعماله للوصف المجرد: أنا ابن اللقاء، أنا ابن السخاء، أنا ابن الضراب، أنا ابن الطعان، أو بالتلاحم مع الفعل المضارع: قضاعة تعلم/ أني الفتى...، ومجدي يدل/ كل كريم يمانٍ، فكان النصّ بما يحمله من تجليات مُحمّلاً بقيم التفوق.

كما كان الانتساب القومي وما يفيضه على الذات من موارد الفخر والعلوّ، وكان قيمة سامية في المديح، ومنه في شعر المتنبي قوله يمدح أبا بكر علي بن صالح الروذباري الكاتب يذكر نسبه الفارسي وماله من مجد:

فارسيٌّ لهُ من المجدِ تـــاجٌ كانَ من جوهرٍ على أبـــروازِ

نفسه فوق كلّ أصلٍ شريفٍ ولو أنّي لهُ إلى الشمسِ عازي (٢٧)

يقول إن ممدوحه فارسي الأصل، له تاج من المجد كان قديما على رأس الملك أبرويز، فهو من بيت عريق في الملك والسيادة، فنفسه عالية فوق كل أصل، ولو أني نسبته للشمس لصار أشرف منها قدراً ومنزلة.

وقد عرف المتنبي بفخره بذاته واعتداده بها، ولذلك فهو يرى أن قومه هم من يفخرون بانتسابهم له علواً وأنفه قال:

لا بقومِي شرفتُ بلْ شرفوا بي وبنفسِي فخرتُ لا بجــدُودي
وبهمْ فَخر كلّ مَن نَطقَ الضــا د وعوذ الجَاني وغَوث الطريدِ
إنْ أكُنْ مُعجباً فعجب عجيــب لم يجِد فوقَ نفسهِ مِنْ مَزيدِ (٢٨)

فخر المتنبي بذاته في النص هو تمثّل لشعوره المتضخم بها، حيث أحال الفخر لقومه بأناه لا العكس" وهذا الأُفق يمنح الأنا الحضور الأعلى، ويضعه في منزلة مختلفة تسمو بتفردها"(٢٩)، وتتمثّل بدوال: شرفوا/ بي، بنفسي/ فخرت، حيث شكّل هذا الإعلاء إطاراً يغمر ذاته ويرتبط بها، وكان هذا الانتساب حيزاً يشير على أحواله، ومكنونات رؤيته لذاته، وفي الاتجاه ذاته قال يفتخر ويذكر نسبه لأبيه وما فيه من سموّ:

أنا ابن مَن بعضه يفوق أبا البــ ــاحث والنجل بعض من نجله
وإنما يذكرُ الجدودَ لهـــــــم مَن نفروه وأنفذوا حيلـــــــه
فخراً لعضب أروحُ مشتملـــــــهْ وسمهريّ أروح معتقلـــــــه
وليفخر الفخر إذ غدوتُ بِـــــهِ مُرتدياً خيره ومنتعلـــــــــه (٣٠)

يتمثل المتنبي في النص فخره بانتمائه لمن بعضه يعصى على الاستقصاء ويفوق، وقد امتلك هذا المعنى قوة دلالية كبرى، فالتمثيل " إن كان افتخارا، كان شأوه أحدّ، وشرفه أجدّ،

ولسانه ألدّ"[٣١]، حيث يضعها الشاعر في أعلى مرتبة يفخر فيها الفخر به، وكان استخدام الشاعر لصيغة مرتدياً خيره ومنتعله منسوبة للفخر، حيث صار رداءً فوق منكبه ونعلاً في رجله، دلالة نموذجية على الشرف وعلوه.

وبالمجمل ورد النسب من خلال نصوص متعددة ضمّت في ثناياها معاني الشرف والعلا، بالانتساب للأصل من الآباء والأجداد، فضلاً عن الانتساب القبلي، والمكاني، والقومي، والشخصي، الذي ورد في قصائد مديح المتنبي وفخره بذاته، مع التمثُّل بالسمات والقيم الأخلاقية السامية التي ضمتها منظومة الأنساق الثقافية عند العرب، ولاسيما صفة الكرم، والشجاعة، فضلاً عما يميز الممدوح من صفات شخصية، وجسدية، ومن أهمها: الجمال، وهو ما سنوضحه في المبحث الآتي:

المبحث الثاني: الجمال

الجمال لغة: الحُسن في الخَلْق، والفِعْل، وجَمُلَ الرجل جمالاً فهو جميلٌ، ويكون الجمال في الصور، والمعاني؛ لذلك قيل إن الله جميلٌ يُحبّ الجمال[٣٢]، وقد كان الجمال هوية سمو وعلا لدى كثير من الأُمم، في العالم القديم والحديث، يقول الفيلسوف أرسطو:" إن من حازوا في جسمهم من الجمال مقدار ماحازت الآلهة، يحقّ لهم أن يستعبدوا من دونهم روعة"[٣٣]، أما لدى العرب فقد وردت صفات الجمال في النساء، وفي الرجال، في مفردات متعددة رصدتها بدقة المعاجم المختلفة[٣٤]، أما في الرجال فـ : "قالوا في الحُسن: كأنه طاقة ريحان، أو خوط آس، وكأنه قضيب خيزران، وكأنه غصن بان، وكأنه رمح رديني، وكأنه صفيحة يمان، وكأنه سيف هندواني، وكأنه جان، وكأنه جدل عنان، فقد قالوا: كأنه المشتري، وكأن وجهه دينار هرقلي، وما هو إلاّ البحر، وما هو إلاّ الغيث، وكأنه الشمس"[٣٥]، كما ضمّ شعر ما قبل الإسلام في تراث العرب خصائص جسد الرجل المثالية، التي "تمثَّل قيماً وسمات جمالية شكّلت أُنموذجاً ومثالاً مشتركاً بين الشعراء العرب قبل الإسلام، تجسدت في ضخامة الهيأة العامة، وامتداد القامة، وبياض الوجه، والأنف الأشمّ، واليد الطويلة، والبطن الضامرة، والساقين الممتلئتين"[٣٦]،

فكانت صفة الجمال تُعبر عن تميز الممدوح، واختلافه، وتكشف وتُعرف عن مهيمنات تفوقه خَلْقيا.

أما المتنبي فقد أكد في مديحه بمواضع كثيرة من ديوانه على جمال الممدوح، بالتجاور مع مديحه للقيم الأخلاقية السامية التي تعارفت عليها منظومة الأنساق الثقافية العربية، كالكرم، والشجاعة، والفروسية، وحُسن الجوار، والإيثار، وغيرها، وكان يسعى عبر هذه الصفة إلى التعبير عن ميزة تفوّق خَلْقية لممدوحه، تميز هويته التي يتمتع بها، وفي هذا الجانب من شعر المتنبي ورد ذكر المفردات الدالة: الجمال، والحُسن، والبياض، والنور، والبهاء، والبدر، والقمر، والشمس.

من ذلك ذكره للجمال في قوله يمدح مساور بن محمد الرومي:

هذا الذي خلَتْ القرونُ وذكــرُه وحديثُه في كتبها مشروحُ

ألبابُنا بجمالِه مبهــــــــورةٌ وسحابُنا بنوالِه مفضــــوحُ

يغشى الطعانَ فلا يردّ قناتَـــــه مكسورة ومن الكُماةِ صحيحُ (٣٧)

تقول العرب: بَهَرَتْ فلانة النساء: أي غلبتْهُنَّ حُسناً، وبَهَرَ القمرُ النجومَ بُهُوراً أي غمرَها بضوئِه(٣٨)، لقد جاء ذكر الشاعر للجمال في النص أعلاه موشحاً بالقول بالانبهار بالتعالق مع إيراد صفات معنوية سامية للممدوح، مثل الكرم المشار له بالنوال، والبطولة المشار لها بالطعان، "وما ذلك إلّا لأنّ الشاعر العربي يريـد أن يتمثّل النموذج الكامل للإنسان الجمالي، والبطل الحضاري المعلّم والمربّي، إنّه يلتـــــزم بالقيمة التي تعلو به، ليلتزم بها غيره أيضاً، وهكذا تحوّلت القيم الأخلاقية من حيث هي جمال إلى وجــود ماهوي يحدّد أهمية الآنية الشعرية، ويضبط مسارها من الداخل، وينمّيها فعلاً في واقعها، ولم يكن الشاعـر العربي على الرغم من إبائه واعتداده الشديد بذاته ليجد غضاضة في الخضوع للقيمة، بل على العكس، إنّه يرى في ذلك واجباً يعزّز جماليته وكرمه ونبله"(٣٩)، وفي مديح المتنبي لعبدالرحمن بن مبارك الأنطاكي مثّل ممدوحه بسليمان في ملكه، ويوسف في جماله بقوله:

مَن يزرْه يزر سليمان في المُلـ ـك جلالاً ويوسفاً في الجمــالِ

وربيعاً يُضاحك الغيث فيـــــه زهر الشكر من رياضِ المعالي
نفحتْنا منهُ الصّبا بنسيـــــمٍ ردّ روحاً في ميت الآمـــــال (٤٠)

ورد المديح للجمال في النص عند الشاعر متعالقاً مع تجليات كونية كبرى في معناها الجوهري هي: النبي سليمان والنبي يوسف– يقول هذا الممدوح لوزرته فكأنك زرت النبي سليمان في جلاله، والنبي يوسف في جماله– متمثلاً بهما عبر المُلك والحُسن، فضلا عن الربيع متمثلاً به بمضاحكة الغيث ورياض المعالي، ونفحة الصبا متمثلاً بنسيم يرد الروح في الآمال؛ حيث يستشف الشاعر منها دلالاته للسمو والتميز الخَلْقي والخُلُقي، فهو ملك واسع المُلك كمُلك سليمان، وله جمال فائق لايشبه به أحد سوى جمال النبي يوسف.

أما في مديحه لسيف الدولة الحمداني، فقال يذكر الجمال:

وشركت دولة هاشم في سيفها وشققت خيس الملك عن رئبالِهِ
عن ذا الذي حرم الليوث كماله ينسي الفريسة خوفه بجمالِـــه
وتواضع الأمراء حول سريـــره وترى المحبة وهي من آكالــه
ويميت قبل قتاله ويبش قبـــ ـل نواله وينيل قبل سؤالِـــهِ (٤١)

لقد ضمت مدائح المتنبي لسيف الدولة بمجملها مشاعر رقيقة وعبارات تنم عن حبه وإكباره وإعجابه بشخصيته المميزة، وقد عبر الشاعر في هذا النص عن رؤيته الوجدانية له، ليرسم صورة المثال البطل خَلْقا وخُلُقا، كما تجلت في شخصه مقارنة بالآخرين، فهو الذي يمتلك هذه الميزة في المدى الذي يضمّهم جميعاً، عبر التقابل بين: حرم الليوث/ كماله، وينسي الفريسة خوفه/ بجماله، يقول: هو أصبح مشاركاً للخلافة في سيفه الذي هو مثل سيف دولة هاشم، وأن الأسد عندما يفترس فريسته تُذعر وتخاف، أما الممدوح فإن قتلاه لاينفرون منه ولايخافون؛ لشدة جماله، لقد حرم كماله الليوث لأنه يشاركها في البأس ويفوقها في الحُسن، وقال يمدحه في موضع آخر:

وإذا صحّ فالزمان صحيحٌ وإذا اعتلَّ فالزمان عليـــلُ
وإذا غابَ وجهه عن مكان فبه من ثناه وجه جميـــلُ

ليس إلاَّك يا عليّ هُمــام　　　سيفه دون عرضه مسلولُ [٤٢]

يقول إن حال الزمان كحال الممدوح في الصحة والاعتلال، وإذا غاب عن المكان فإنه يترك فيه من جمال الوجه وخير الفعال شاهد على حسنه، وطيب أثره، وذكره الكريم، المتنبي بهذا النص يُعبر عن ممدوحه بصفات متلازمة مع مفاهيم يستلهمها للمقارنة، وقد اعتمد على أفعال تكشف عمق تميزه، بالقول بـ: إذا صحّ/ فالزمان صحيح، إذا اعتلَّ/ فالزمان عليل، إذا غاب وجهه/ فبه من ثناه وجه جميل، وهي إشارات تضمنت بيان التضاد بين الصحة والعلّة، والتلاحم بين الغياب والوجه الجميل، والهمة والسيف المسلول، إذ يروم عبر هذه المعاني استدعاء مرجعية تضم كينونة مميزة لممدوحه.

وقد تردد ذكر الحُسن –وهو نعت في لغة العرب لما حسُن[٤٣]– في مواضع أخرى في مديح المتنبي، وحسبك ماتفيضه هذه المفردة من معاني الجمال، التي تتحرك بفاعلية لخلق أنموذج لصورة من التميز، تخضع لشروط القبول المجتمعي بطابعه العام، فهي مفردة تساهم بطاقتها الإيحائية، والتصورية، في تشكيل صورة الممدوح واكتسابه قيمة راقية متعالية، "فإن الأدب يعتبر جزءاً من النظام الثقافي، أو نظاماً داخل النظام"[٤٤]، ومنه قوله، مضمناً مفردة الحُسن مع الجمال في مديحه للحسين بن إسحاق التنوخي:

نكرتك حتى طال منك تعجبـــي　　　ولا عجب من حُسن ما الله خالِــقُ
كأنك في الإعطاء للمال مُبغضٌ　　　وفي كلّ حرب للمنيةِ عاشـــــقُ
ألا قلما تبقى على ما بدا لهـــا　　　وحلّ بها منكَ القنا والسوابـــــقُ
سيحيى بك السُّمارُ مالاحَ كوكبٌ　　　ويحدو بكَ السفار ماذرَّ شـــــارقُ
خف الله واستُرْ ذا الجمال ببرقعٍ　　　فإن لحتَ ذابتْ في الخدورِ العواتقُ[٤٥]

يقدم الشاعر في النص مدى يتبنى التعريف بمنزلة الممدوح، عبر الإخبار عن صفات تقييمية معنوية وجسدية له، فيقول: لقد طال عجبي منك وأنكرت وجود أحد مثلك في الفضل، ولاعجب من خلق الله وقدرته حيث خلقك، فخف الله واستر جمالك الباهر بنقاب؛ لأنك إن ظهرت ستذوب العواتق في خدورهن عشقاً، لقد رصد من سماته: الحُسن مع: الكرم، والشجاعة،

وجعلها من ضمن قيم تتعالق مع بنية المدّ التعريفي به عبر استحضار أطر تتلازم مع تلك الصفات العليا: بالقول بطول التعجب ونفية، مع الظهور والستر، قال: طال منك تعجبي/ ولا عجب من حسن ما الله خالقُ، خف الله واستر ذا الجمال/ فإن لحت ذابت في الخدور العواتق، وهذه دلالات خاصة من الشاعر يُعرف بها ممدوحه، بالتعالق مع سماته المعنوية آنفة الذكر وماتستثيره من قيم، للدلالة على تميز شخصيته خَلْقا وخُلُقا، وكذلك مدحه بالحُسن في قصيدة أُخرى، قال فيها:

له رحمةٌ تُحيي العظام وغضبةٌ بها فضلةٌ للجرمِ عن صاحبِ الجرمِ

ورقّة وجهِهِ لو ختمت بنظـــــرة على وجنتيهِ ما انمحى أثر الختــمِ

أذاقَ الغواني حُسنه ما أذقننـي وعفَّ فجازاهُنّ عني على الصـــرمِ (٤٦)

لقد جاءت معاني: رحمة القلب، ورقّة الوجه، مع الحُسن متلاحمة مع ذكره لتجلياتها: لو ختمت بنظرة على وجنتيه/ ماانمحى أثر الختم، أذاق الغواني حسنه/ وعفّ، للتعبير عن بروزها فيه، باستحضار قيم حسّية تجلّت بالأثر وقيم معنوية تجلّت بالعفاف، ليقول إن ممدوحه له رحمة إذا غضب، حيث يتجاوز بغضبه عن المجرم، وهو رقيق الوجه، حييّ، فلو نظر إليه ناظر ترك ذلك النظر أثراً عليه كالختم، لرقته، فلا يذهب ولايمحى ذلك الأثر، وقد عشقته النساء ولم يواصلهن، فكأنه يجازيهن عني بالعفاف عما فعلن بي، فعبّر عن شخصية مميزة اتكأ في التعريف بها على أحداث تشير إلى وصف سماته الأخلاقية، والجسدية، التي يمتلك مَن يتحلّى بها منزلة كبرى في الأعراف الثقافية عند العرب.

كما ذكر الحُسن في مديحه لأبي الفرج أحمد بن الحسين القاضي المالكي، قال:

وماحارت الأوهام في عظم شأنه بأكثر مما حارَ في حُسنه الـــطرفُ

ولا نالَ من حُساده الغيظ والأذى بأعظم مما نالَ من وفرةِ العُـــــرفِ

تفكُّره علم ومنطقهُ حُكـــــــم وباطنه دين وظاهره ظـــــــــرفُ

أماتَ رياح اللؤم وهي عواصفٌ ومغنى العلى يودي ورسم الندى يعفو (٤٧)

لقد استثمر الشاعر الحيرة للدلالة على شدّة حُسن ممدوحه، وقد كان ذلك الحُسن والتميز به متلازماً مع عظم الشأن، فضلاً عن صفات أفردها عبر صيغة النفي: ماحارت، ماحار، لانال، مانال، الذي يشير ضمن سياقه على مدى تفوق في شمائله، وفعله، حيث: تفكره/علم، منطقه/حكم، باطنه/دين، ظاهره/ظرف، إذ يرصد الشاعر تميز ممدوحه بهذه السمات ليجعلها مرجعية تضمّ شخصه المتفرد بها.

كما جاء ذكر الحسن في مديحه لسيف الدولة الحمداني، بقوله:

إن كان قد ملك القلوب فإنه ملك الزمان بأرضه وسمائـــــه
الشمس من حساده والنصر من قرنائه والسيف من أسمائه
أين الثلاثة من ثلاث خلاله من حسنه وإبائه ومضائـــــــه (٤٨)

يذكر الشاعر: الحُسن، والإباء، والمضاء، التي جاءت دلالاتها متلاحمة مع صفات للمقارنة بمفاهيم كونية، هي: الشمس/ وقد جعلها من حساده، أو معنوية وهي: النصر/ وقد جعله من قرنائه، أو الأداة الحربية السيف/ وهو من أسمائه، فكانت الصورة معبرة في محتواها الإبلاغي عن الاختلاف والتميز، الذي كشفه عبر الإحالات التي رصد فيها التعالق ما بين الممدوح وبين تلك المفاهيم، ثم أردفها الشاعر بصيغة السؤال الإنكاري: أين الثلاثة من ثلاث خلاله/ الحُسن، والإباء والمضاء، للتعبير عن قوة الاتساع وخصوصية الممدوح: فهو محبوب لقدره، وقد ملك الزمان فإنه يصرفه حيث يشاء، ولذلك فهو ليس بعجيب أن يمتلك القلوب، فالشمس تحسده، والنصر قرين له، والسيف هو اسم من أسمائه، بل أين هذه الثلاثة من حُسنه بالتقابل مع الشمس، وإبائه بالتقابل مع النصر، ومضائه بالتقابل مع السيف.

وضمّن المتنبي في وصفه لجمال الممدوح مفردة الحلو، والحلو لغة: نقيض المرّ، وكل مافي طعمه حلاوة، والحلو من الرجال: الذي تستحليه الناس والعين، والأنثى حلوة(٤٩)، لقد ضمّ شعر

المتنبي في المديح بالتجاور مع هذه الصفة دلالات وصور تُعبر عن قيم ومُثل إنسانية سامية، مثل: حماية الجار، والكرم، والإباء، والوفاء، والثقة، كقوله يمدح عبيدالله بن خلكان:

دان بعيد محب مبغض بهــج   أغرّ حلو ممرّ ليّن شـــــــــرس

ند أبي غر واف أخي ثقـــــة   جعد سري نه ندب رضا نـــــدُس

لو كان فيض يديهِ ماء غادية   عزّ القطا في الفيافي موضع اليبس (٥٠)

استعمل الشاعر مفردات متتالية للدلالة على الفضل، والطيب، والقوة، والكرم، وردت من ضمنها مفردة حلو في أفق التعريف بممدوحه، فهي ملامح شخصية يختلف بها الممدوح عن غيره، ويسمو بكينونتها في ذاته، حيث يحيل هذا الوصف بتتابعه على تضخم للمعنى، ليبرز ويميز ممدوحه، وفي موضع آخر، يقول المتنبي ذاكراً بياض الوجه، وحلاوة المذاق، يمدح المغيث بن علي بن بشر العجلي:

إذا بدا حَجَبَتْ عينيكَ هيبتُـــــهُ   وليسَ يحجبُه سترٌ إذا احتجبـــا

بياضُ وجهٍ يُريك الشمس حالكة   ودرّ لفظٍ يريك الدرَّ مخشلبـــــا

تحلو مذاقته حتى إذا غضبـــا   حالتْ فلو قطرت في الماءِ ماشُربا (٥١)

يذكر الشاعر في هذا النص مع الإشارة لجمال ممدوحه ببياض الوجه وحلاوة المذاق معطيات سامية تحلى بها في أكثر من اتجاه، بالقول بـ: الهيبة، ودرّ اللفظ، وهذه المعطيات في الوصف يستمدها الشاعر من الجانب الحسّي، الذي استثمره بالاستعارة: حجبت عينيك/ هيبته، بياض وجه يريك/ الشمس حالكة، درّ لفظ يريك/ الدرّ مخشلبا، تحلو مذاقته/ فلو قطرت في الماء ماشربا، للدلالة على علو ممدوحه، وجماله، وشرفه، فهو عندما يظهر للأنام تحجب هيبته عيونهم عن النظر، ونور وجهه يفيض قوة ويتجاوز الستور فيظهر من خلالها، فلوجهه نور يغلب نور الشمس، وإن تقابل معها صارت سوداء حالكة أمامه، وهو حلو المذاق، طيب الأخلاق لأوليائه، ولكنه إذا غضب على أعدائه تحولت حلاوة مذاقه لمرارة، لو قطرت في ماء البحر لصار مُراً لايُشرب، قال العكبري:" استعار للمذاقة: قطراً، اتساعاً ومجازا" (٥٢)، أما مفردة النور فقد وردت أيضا في شعر المتنبي للدلالة على جمال الممدوح، لغة يقال: نارَ نوراً وأنار

واستنار ونوَّر، أي أضاء، وقيل في صفة النبي: أنور المتجرَّد، أي نيِّر الجسم، ويقال للحَسِن المُشرِق اللون: أنور(٥٣)، فالنور يوحي بالبهاء والإشراق، ويُعبر عما يتمتع به الممدوح من جمال بوصفه إطاراً مرجعياً يفيض منه، ومنه في قوله يمدح جعفر بن كيغلغ:

إذا خَلَتْ منكَ حمْص لا خلَتْ أبداً فلا سقاها من الوسميّ باكـرهُ

دخلتَها وشعاع الشمس متَّقِـــدٌ ونور وجهك بين الخلق باهرهُ

في فيلقٍ من حديدٍ لو قذفت بـــه صرف الزمان لما دارتْ دوائرهُ

تمضي المواكبُ والأبصارُ شاخصةٌ منها إلى الملك الميمون طائرهُ

قد حِرنَ في بشَرٍ في تاجِه قمـــرٌ في درعِه أسدٌ تدمي أظافـــرهُ (٥٤)

يروم النص كشف مايتحلى به الممدوح من البهاء والبطولة معاً؛ حيث جاء وصفه من خلال دوال تبدى فيها التعالق بين الجمال، والقوة، والشجاعة، فيقول مخاطباً ممدوحه: إن حمْص إذا خلت من وجودِك فلا أنبتتْ ولاسقاها الغيث، ولكنك حين دخلتها مع جيشك المدجج بالحديد وقد كانت الشمس مشرقة متوقدة الشعاع، فإن نور وجهك غلب ضوءها إنارة وإبهاراً، وكانت أبصار الناس شاخصة وهي تنظر إلى الملك الميمون–وهو المخاطب الممدوح– بالنصر متحيرة منه، وقد جعل في تاجه قمرا كناية عن جماله، وفي درعه أسدا كناية عن قوته وشجاعته، وزيادة في البطش جعل إظفاره ملطخة بالدم كناية عن افتراسه لأعدائه، فهذا التعالق بين الجمال والبطولة جاء لتمييز ممدوحه في سياق مكتنز بالدلالة، بالقول بـ: نور الوجه، وإبهار الخلق، وبفيلق الحديد، ودوران الدوائر، والأبصار الشاخصة، والأسد الذي تدمي أظافره، فهذا الوصف يضم قيمة الممدوح المثال في الخطاب الإبلاغي للنص، ومثله يذكر النور كناية عن الجمال والتمام معاً في قوله يمدح سيف الدولة:

فليسَ لشمسٍ مُذْ أنرتَ إنارةً وليسَ لبدرٍ مُذ تممْتَ تمام (٥٥)

وقوله يذكر البهاء مع النور يمدح أبا عبادة بن يحيى البحتري:

ماذا البهاء ولا ذا النور مِن بشرٍ ولا السماح الذي فيه سماح يدِ

أيّ الأكفّ تُباري الغيثَ ما اتفقـا حتى إذا افترقا عادتْ ولم يَعُـدِ (٥٦)

اشتمل التعبير عن شخص الممدوح إظهار امتداد في مدى الدلالة المنتخبة على الجمال، بالقول: (ماذا البهاء ولا ذا النور من بشر)، متوازية مع ذكر السماح عبر السؤال الإنكاري الذي يوحي بالشمول الذي يحتوي صفته، فهو كناية عن قوتها وتمركزها الجوهري، وشدة تجليها.

كما استثمر الشاعر ثيمة البدر ونوره للدلالة على جمال الممدوح، والبدر لغة: القمر إذا امتلأ، وسُمي بدراً لتمامه، وبدر القوم: سيّدهم على التشبيه بالبدر(٥٧)، يقول المتنبي يمدح أبا الحسين بدر بن عمار بن إسماعيل الأسدي الطبرستاني:

أنتَ لعمري البدرُ المنير ولـ ـكنّكَ في حومةِ الوغى زحلُ

كتيبةٌ لستَ ربّها نفـــلٌ وبلدةٌ لستَ حليها عَطـــلُ

قصدتْ من شرقِها ومغربِهــا حتى اشتكتكَ الركابُ والسُّبُلُ

لم تبقِ إلاّ قليل عافيــــةٍ قد وفدت تجتديكها الـــعللُ (٥٨)

لقد أحال الشاعر القول بالبدر المنير وهو كناية عن الجمال التام لممدوحه، إلى زحل عند الانتقال لمدى وصف شجاعته في المعارك التي يخوضها في حومة الوغى، إنها كناية عن القوة والبطش الذي يتميز به هذا الجرم في المفهوم النسقي(٥٩)، القمر أيضاً مفردة تتردد في الشعر العربي عامة لوصف الجمال والحُسن، وكذلك وردت في ديوان المتنبي في المديح، ومنه في قوله يمدح بدر بن عمار:

تتحيّرُ الأفعالُ في أفعالِـــهِ ويقلّ ما يأتيهِ في إقبالِـــهِ

قمراً نرى وسحابتين بموضــعٍ من وجهِهِ ويمينِهِ وشمالِـــهِ

سفكَ الدماءَ بجودِهِ لابأسِـــهِ كرماً لأنّ الطيرَ بعض عيالِهِ

إن يفنَ ما يحوي فقد أبقى بهِ ذكراً يزولُ الدهرُ قبل زوالِــهِ (٦٠)

استثمر الشاعر القمر والسحاب بوصفهما معطى للدلالة على الجمال والسخاء، لمدح الحُسن والجود وبيان تجليه في ممدوحه، كما عبّر باستعمال القمر عن جمال ممدوحه سيف الدولة الحمداني، قال:

يا أيّها القمر المُباهي وجهَـــهُ لاتكذبَنّ فلستَ من أشكالِــهِ

وإذا طما البحرُ المحيط فقلْ لــهُ دعْ ذا فإنّكَ عاجزٌ عن حالِهِ
وهب الذي ورثَ الجدود وما رأى أفعالَهم لابن بلا أفعالِـــــــهِ
حتى إذا فنِيَ التراث سوى العـلا قصدَ العداة من القنا بطوالِهِ (٦١)

الشاعر يخاطب القمر ويصفه بالكذب عندما يتباهى بممدوحه، فهو ليس شكلاً من أشكاله، لأنه أبهى وأنور، وله في البأس والكرم رتبة لايبلغها، ومكانة لايستحقها(٦٢)، فالشاعر يولد تضخماً للدلالة بالتركيز على المعنى، فضلاً عن ذكر مناقبه الأخرى التي أوردها في النص كالكرم، والعلا، والبطولة.

وقد يزاوج الشاعر بين البدر والشمس لرسم صورة الجمال التي يتحلى بها ممدوحه، ومنه قوله يمدح علي بن منصور الحاجب:

هذا الذي أبصرت منه حاضـــــراً مثل الذي أبصرت منه غائبا
كالبدر من حيث التفتَّ رأيتَـــــــهُ يهدي إلى عينيكَ نوراً ثاقبا
كالبحر يقذفُ للقريبِ جواهـــــــراً جوداً ويبعثُ للبعيدِ سحائبا
كالشمس في كبدِ السماء وضوءُها يغشى البلادَ مشارقاً ومغاربا(٦٣)

لقد استثمر المتنبي البدر والشمس في مدى وصف تميّز النور والضوء المتجلي عما يفيض من الجمال في ممدوحه الذي يغشى كل مكان، فهذا النور والضياء الذي ينماز به هو علامة شخصية يتميز بها الممدوح عن سواه، ويمنحه مكانة عليا في السمو بمعطياتها، فضلاً عن الجود والكرم الذي كنّى له بالبحر في البيت الثاني، ومثله قوله يمدح سيف الدولة، وفيه أيضا يستعمل مفردة البدر بصيغة الجمع مزاوجاً بينه وبين الشمس في قوله:

فتى يهب الإقليم بالمالِ والقـــرى ومن فيه من فرسانِهِ وكِرامِـــــه
ويجعل ما خوّلته من نوالِـــــــهِ جزاءً لما خوّلته من كلامِـــــــهِ
فلا زالتْ الشمس التي في سمائِه مُطالعة الشمس التي في لِثامِهِ
ولا زال تجتازُ البدورُ بوجهِـــــــهِ تعجّب من نُقصانها وتمامِـــــهِ (٦٤)

في هذا النص يذكر الشاعر الشمس التي لاتزال تطالع الشمس التي في لثامه، كناية عن نور وجهه المتميز، وكذلك البدور التي تجتاز وجهه والتي لاتزال متعجبة من نقصها وتمامه، فإحالة شمس السماء للشمس المتخيلة في وجه الممدوح، والبدور المتعجبة ترفده بمعنى مُركز يدل على جمال باهر، وشرف تام، قال العكبري:" فلازالت الشمس المنيرة في السماء تراقب من وجهه المستتر باللثام شمساً لاتقاوم حسنها، ولاتماثل نورها، فهي تطالعه متهيبة لحسنها، مستعظمة لأمرها... ولازالت بدور الشهور مجتازة بوجهه متعجبة من نقصانها عن بلوغ رتبته وتصاغرها عن مماثلة بهجته"[٦٥]، وقد أورده متلاحما مع صفات الجود، والبطولة، لرسم صورة تحوي القيمة الشخصية التامة التي يريد التعبير عنها، عبر استجلاء التماثل بين القيمة المعنوية والجمالية حيث تتحقق بإنموذج البطل المختلف.

وفي نص آخر يخصص المتنبي القول بشعاع عين الشمس لوصف ممدوحه–سيف الدولة أيضاً– لزيادة المعنى وتركيز الصورة لوصف جماله وقوة حضوره:

تخرُّ لهُ القبائل ساجـــــدات وتحمدهُ الأسنّةُ والشفارُ

كأنّ شعاعَ عين الشمس فيه ففي أبصارِنا منهُ انكسارُ

فمَن طلبَ الطعان فذا علــيٌّ وخيل الله والأسل الحرارُ [٦٦]

التميز للممدوح تجلّى عبر صيغة التشبيه، التي ضمت تحلّي الممدوح ببعدين، الأول: أكد فيه المرجعية العليا للضياء في النظام الشمسي، بالقول: كأن شعاع عين الشمس فيه، وهي الصفة التي يكتسب بها سطوعه الدال على الجمال الواضح، فهي مدلول مرجعي له، الثاني: تداعيات هذا التجلي على النحن، بالقول: ففي أبصارنا منه انكسار، الذي يدل على قوة التجلي وشدة ظهوره.

فهذا النص والنصوص الآنفة عبّرت عن صفة الجمال في ممدوح المتنبي، وقد أوردها من ضمن عديد السمات العليا التي ضمتها منظومة الأنساق الثقافية عند العرب، ولاسيما صفة الكرم والبطولة.

الخاتمة:

تكرر مدح النسب والجمال في ديوان المتنبي في غرض المديح، وضمّ في ثناياه معاني الشرف، والعلا، وجاء في إطار يضمّ وصف الممدوح والتعريف بسماته المميزة، المشهود لها بالسمو والتفوق في منظومة الأنساق الثقافية العربية.

فوردت المفردات الدالة على النسب الشريف، كالانتساب لأصل العرب من قحطان أو عدنان بما يحتويه من شرف الانتماء لمرجعية ثقافية عليا في النسيج المجتمعي؛ لأن هذا الانتماء يعود لأصل العربي فهو عزة وسمو ترتفع بها الأقدار، كما ضمّن المتنبي في هذا المدى الانتماء للقبيلة، بكل ماتختزنه تلك القبيلة من مناقب ومآثر هي عند العرب رفعة لمن ينتمي لها، وكذلك كانت مفاخر الآباء ومآثرهم مدى وافر في مديح المتنبي للنسب، يضاف لذلك ذكره للسيادة التي تعد مرجعية عليا للشرف، ودالة مميزة في سمات التفوق لدى الثقافة النسقية العربية بامتياز، فضلاً عن الانتساب المكاني، والقومي، والشخصي، الذي ورد في قصائد متعددة في مديح المتنبي وفخره بذاته.

كما أكد المتنبي بنصوص متعددة من شعره في غرض المديح على جمال الممدوح، وفي هذا الجانب من شعره ورد ذكر المفردات الدالة: الجمال، والحُسن، والبياض، والنور، والبهاء، والبدر، والقمر، والشمس، وقد وردت هذه الدلالات متجاورة مع مديحه للقيم الأخلاقية السامية التي اتفقت عليها منظومة الأنساق الثقافية عند العرب، ولاسيما الكرم، والشجاعة، والفروسية.

الهامش

١. ينظر: لسان العرب، جمال الدين محمد بن مكرم ابن منظور، مادة [نسب].
٢. ينظر: اللسان، مادة [حسب].
٣. سورة الحجرات، آية ١٣.
٤. ينظر: زهر الأكم في الأمثال والحكم، الحسن اليوسي، حققه: د.محمد حجي، د. محمد الأخضر، ٢/ ٦٥.
٥. مسند أحمد بن حنبل، ٢/٣٧٤.

٦. ينظر: الفهرست، ابن النديم، ١٣١ ومابعدها.
٧. ينظر: موسوعة القبائل العربية(أنسابها، وقائعها، مآثرها، شعرائها)، عبد عون الروضان، ١/٦، ٧.
٨. الصاحبي في فقه اللغة العربية ومسائلها وسنن العرب في كلامها، أبو الحسين أحمد بن فارس بن زكريا، ص٢١٢.
٩. ينظر: المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، د. جواد علي، ١/ ٢٩٤.
١٠. ديوان المتنبي، أبو الطيب أحمد بن حسين الكوفي، ضبطه وعلق عليه: الشربيني شريدة،٧٠.
١١. ينظر: اللسان، مادة [شرف].
١٢. ديوان المتنبي بشرح أبي البقاء العكبري المسمى بالتبيان في شرح الديوان، ٢/ ٣٧٩.
١٣. الديوان، ٥٣.
١٤. الديوان، ٣٨٥.
١٥. ينظر: سبائك الذهب في معرفة قبائل العرب، أبو الفوز محمد أمين البغدادي المشهور بالسّوَيْدي، ١١.
١٦. الديوان،٢٥٩، ٣٦٠.
١٧. الأمثال العربية والعصر الجاهلي دراسة تحليلية، د. محمد توفيق أبو علي، ١٦٦.
١٨. الديوان، ١٨.
١٩. ديوان المتنبي بشرح أبي البقاء العكبري، ١/ ٣٠٦.
٢٠. الديوان، ٢٢٤، التهامي: نسبة إلى تهامة.
٢١. الديوان، ٢٠٤.
٢٢. الديوان، ١٦٤.
٢٣. ينظر: اللسان، مادة سود.
٢٤. الديوان، ١٩٦.
٢٥. الديوان، ١٨.

٢٦. الديوان، ٤٢.

٢٧. الديوان ، ٢٠٣.

٢٨. الديوان، ٣١.

٢٩. تجليات الأنساق الثقافية في شعر المتنبي، د. مريم عبدالنبي عبدالمجيد،٥٣، (المجلة الدولية للعلوم الإنسانية والاجتماعية، ع٢٩، ٢٠٢٢)

٣٠. الديوان،٢٤١.

٣١. أسرار البلاغة، أبو بكر عبدالقاهر بن عبدالرحمن بن محمد الجرجاني النحوي، ١١٥.

٣٢. ينظر: اللسان، مادة [جمل].

٣٣. السياسات، نقله من الأصل اليوناني إلى العربية: الأب اوغسطِينس بربَارَة البُولسي، ١٧.

٣٤. ينظر على سبيل المثال : كنز الحفاظ في كتاب تهذيب الألفاظ، أبو يوسف يعقوب بن إسحاق السكّيت، ٢٠٥، (باب الحُسْن).

٣٥. رسائل الجاحظ، ٦٤/٣.

٣٦. الجسد في الشعر العربي قبل الإسلام، محمد حسين محمود العبيد، ١٠٦، (رسالة ماجستير، جامعة الموصل، كلية الآداب، ٢٠٠٤).

٣٧. الديوان، ٧٧.

٣٨. ينظر: اللسان، مادة [بهر].

٣٩. جماليات الشعر العربي دراسة في فلسفة الجمال في الوعي الشعري الجاهلي، د. هلال الجهاد، ٤٠٨.

٤٠. الديوان، ١٢٩.

٤١. الديوان، ٢٧٥.

٤٢. الديوان، ٣٩٥.

٤٣. ينظر: اللسان، مادة [حسن].

٤٤. نظرية النص من بنية المعنى إلى سيميائية الدال، د.حسين خمري ١٩.

٤٥. الديوان، ٨٧.

٤٦. الديوان، ٩٢.

٤٧. الديوان، ١١٦.

٤٨. الديوان، ٣٣٠.

٤٩. ينظر: اللسان، مادة [حلا].

٥٠. الديوان، ٣٥.

٥١. الديوان، ١٠٨، (المخشلب: خرز من حجارة البحر).

٥٢. ديوان المتنبي بشرح أبي البقاء العكبري،١/١١٥.

٥٣. ينظر: اللسان مادة [نور].

٥٤. الديوان، ٥١.

٥٥. الديوان، ٣٦٣.

٥٦. الديوان، ٧٤.

٥٧. ينظر: اللسان، مادة [بدر].

٥٨. الديوان،١٤٣.

٥٩. ينظر: ديوان المتنبي بشرح أبي البقاء العكبري،٣/ ٢١٧.

٦٠. الديوان، ١٦١.

٦١. الديوان،٢٧٦.

٦٢. ينظر: ديوان المتنبي بشرح أبي البقاء العكبري،٣/٦٢.

٦٣. الديوان، ١٢٠.

٦٤. الديوان، ٣٧٤.

٦٥. ينظر: ديوان المتنبي بشرح أبي البقاء العكبري، ٤/٤.

٦٦. الديوان، ٣٧٣.

المصادر:

١. القرآن الكريم.
٢. أسرار البلاغة، أبو بكر عبدالقاهر بن عبدالرحمن بن محمد الجرجاني النحوي، قرأه وعلّق عليه، أبو فهر محمود محمد شاكر، دار المدني بجدة، المؤسسة السعودية بمصر، ط١، ١٩٩١.
٣. الأمثال العربية والعصر الجاهلي دراسة تحليلية، د.محمد توفيق أبو علي، دار النفائس، بيروت، لبنان، ط١، ١٩٨٨.
٤. تجليات الأنساق الثقافية في شعر المتنبي، د. مريم عبدالنبي عبدالمجيد، المجلة الدولية للعلوم الإنسانية والاجتماعية، ع ٢٩، ٢٠٢٢.
٥. الجسد في الشعر العربي قبل الإسلام، محمد حسين محمود العبيد، رسالة ماجستير، جامعة الموصل، كلية الآداب، ٢٠٠٤.
٦. جماليات الشعر العربي دراسة في فلسفة الجمال في الوعي الشعري الجاهلي، د. هلال الجهاد، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت–لبنان، ط١، ٢٠٠٧.
٧. ديوان المتنبي، أبو الطيب أحمد بن حسين الكوفي، ضبطه وعلق عليه: الشربيني شريدة، دار الحديث، القاهرة، ٢٠١٤م.
٨. ديوان المتنبي بشرح أبي البقاء العكبري المسمى بالتبيان في شرح الديوان، ضبطه وصححه ووضع فهارسه: مصطفى السقا، إبراهيم الأبياري، عبدالحفيظ شلبي، مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده، مصر، ١٩٧١.
٩. ذكر الأكم في الأمثال والحكم، الحسن اليوسي، حققه: د.محمد حجي، د. محمد الأخضر، دار الثقافة، (الدار البيضاء–المغرب)، ط١، ١٩٨١ .
١٠. رسائل الجاحظ، تحقيق وشرح، عبدالسلام محمد هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة – مصر، د.ت.
١١. سبائك الذهب في معرفة قبائل العرب، أبو الفوز محمد أمين البغدادي المشهور بالسّوَيْدي، وضع حواشيه، كامل مصطفى الهنداوي، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، ط٥ ، ٢٠١٢ .

١٢. السياسات، أرسطو، نقله من الأصل اليوناني إلى العربية: الأب اوغسطِينس بربَارَة البُولسي، اللجنة الدولية لترجمة الروائع الإنسانية، بيروت، ١٩٥٧.

١٣. الصاحبي في فقه اللغة العربية ومسائلها وسنن العرب في كلامها، أبو الحسين أحمد بن فارس بن زكريا، علق عليه ووضع حواشيه، أحمد حسن بسيح، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط١، ١٩٩٧

١٤. الفهرست، ابن النديم، دار المعرفة، بيروت، لبنان، د.ت.

١٥. كنز الحفاظ في كتاب تهذيب الألفاظ، أبو يوسف يعقوب بن إسحاق السكّيت، هذبه: أبو زكريا يحيى بن علي الخطيب التبريزي، المطبعة الكاثوليكية للآباء اليسوعيين، بيروت، ١٨٩٥.

١٦. لسان العرب، جمال الدين محمد بن مكرم ابن منظور، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والأنباء والنشر، د.ت.

١٧. مسند أحمد، الإمام أحمد بن حنبل، شرح، أحمد شاكر، دار المعارف، ١٣٧٢هـ.

١٨. المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، د. جواد علي، ساعدت جامعة بغداد على نشره ، ط٢ ، ١٩٩٣ .

١٩. موسوعة القبائل العربية(أنسابها، وقائعها، مآثرها، شعرائها)، عبد عون الروضان، الأهلية للنشر والتوزيع، المملكة الأردنية الهاشمية، عمّان، ط١، ٢٠٠٢.

٢٠. نظرية النص من بنية المعنى إلى سيميائية الدال، د.حسين خمري، الدار العربية للعلوم ناشرون (بيروت_لبنان)، منشورات الإختلاف (الجزائر_العاصمة)، ط١ _ ٢٠٠٧م